يونتان مندل*

سياسة إهمال الترجمة!

[حول الترجمات الإسرائيلية لمصطلحات "الانتفاضة" و "شهيد"، و "الهدنة" و "الحركات الإسلامية"]

(*) أَذكُر أنني فَرَكْتُ عينيَّ عندما تملَّكتْني الدهشة. لقد كان ذلك قبل عشر سنواتٍ تقريبًا حينما كنت أقرأ كتابًا ألّفه عالم الاجتماع الإسرائيلي المعروف باروخ كيمرلينغ (Baruch Kimmerling). فقد ذكر "الثورة الشعبية التي خاضها الفلسطينيون خلال العام ١٩٨٧"، مستخدمًا الكلمة العبرية "هيتكوميموت" للإشارة إلى "الثورة". ولهذه الكلمة دلالاتٌ إيجابيةٌ مباشرةٌ في اللغة العبرية، حيث تشير إلى فعل المقاومة ضد القوة القائمة بالاحتلال. وتأمّلت في نفسي "كيف أنه لم يكن لي أن سمعتُ بهذا الحدث التاريخي؟". "فهل وقع هذا الحدث قبل اندلاع 'الانتفاضة'

* طالبٌ إسرائيليّ في مرحلة الدكتوراه في كلية كوينز (Queens' College) في جامعة كمبريدج- بريطانيا. وهو يُعدّ رسالة الدكتوراه التي تتناول العلاقة بين اللغة العربية والأمن في إسرائيل، في دائرة دراسات الشرق الأوسط (Department of Middle Eastern Studies). وقد عمل كصحافيٍّ بصفة رسمية في إسرائيل، وهو مساهم حاليًا في مجلة London Review of Books.

الفلسطينية أم بعدها؟" (حيث تُصوِّر الكلمة المستخدمة في اللغتين العربية والعبرية أعمال الشغب التي أطلقها الفلسطينيون خلال شهر كانون الأول ١٩٨٧ في قطاع غزة والضفة الغربية). وقد استدعى هذا الأمر منّي قراءة عدّة صفحات أخرى من الكتاب قبل أن أتمكّن من استيعاب ما كان كيمرلينغ يرمي إليه، حيث كتب يقول: "في العام ٢٠٠٠، اندلعت الصدامات بين الفلسطينيين وقوات الشرطة الإسرائيلية بالقرب من المسجد الأقصى... حيث أنذرت هذه الصدامات ببداية الثورة المسلحة الفلسطينية".

من جهة، انتابني شعورٌ بالراحة حينما أدركتُ أنني لم أُفَوِّت أي أحداثٍ سياسيةٍ مهمةٍ وقعت في إسرائيل/ فلسطين. فقد كان كيمرلينغ، عندما استخدم كلمة 'الثورة'، يشير إلى 'الانتفاضتين' اللتين اندلعتا خلال العام ١٩٨٧ وبعده خلال العام ٢٠٠٠ (والتي عُرفت بـ'انتفاضة الأقصى'). ومن جهة أخرى، أدركتُ ضآلة ما

كنت أعرفه عن هذين الحدثين، حيث تخلو معظم الكتابات العبرية من ترجمةٍ لكلمة 'الانتفاضة'، وهي الكلمة العربية التي تُستَخدم للدلالة على هاتين الثورتين. وبذلك، ترتبط بهذه الكلمة، التي تشكّل لفظًا ليس له من تفسيرٍ أو شرح، دلالاتٌ تثير الخوف والكراهية في النفوس وتحمل دلالاتٍ شيطانيةً يَسِمُها العنف. بالنسبة لي، كانت كلمة 'الانتفاضة' تترادف مع مثيري أعمال الشغب والإرهاب والقنابل الحارقة ورجم الحجارة وحرق الإطارات والدماء والصدامات. وقد تملّكني الاستغراب عندما أدركت مدى ما يمكن لكلمةٍ أن تُحوِّر العدسة التي كنت أنظر من خلالها إلى الأحداث السياسية الجارية. والأغرب من ذلك أنني عندما سارعت إلى أقرب قاموسٍ للّغتين العربية والعبرية وقَعت عليه يدي، رأيت أنه يترجم كلمة 'انتفاضة' العربية إلى كلمة 'هيتكوميموت' العبرية على نحوٍ حرفيّ.

وليس من قبيل المصادفة أن وسائل الإعلام الإسرائيلية، إلى جانب المفكرين الإسرائيليين، اختارت الإبقاء على كلمة 'الانتفاضة' من دون ترجمةٍ تقابلها في اللغة العبرية. فبذلك، كانت أجهزة الإعلام تحقّق هدفين اثنين: حيث يسود الاعتقاد بأنه جرت المحافظة على 'الولاء' لمعنى تلك الكلمة بسبب استخدام هذه الترجمة 'الأصليّة' مع تفريغ المعنى الأصيل الذي تدلّ عليه بسبب غياب الترجمة المناسبة لها في ذات الوقت. وبعبارةٍ أخرى، يُعاد تعبئة معنى الكلمة وشحنُه بمضمونٍ وسياقٍ وفهمٍ سياسيٍّ إسرائيليّ- يهوديّ يُعتبر 'طبيعيًا' وعلى درجةٍ كبيرةٍ من الوضوح بصورة لا تستدعي شرحها في الأساس. وهذه هي الطريقة التي تحوّلت فيها كلمة 'الانتفاضة'، التي تشير في أصلها إلى مفهوم نشأ استجابةً لوضعٍ قائمٍ ودفاعيٍّ في معناه إلى مدلولٍ يحمل في طيّاته معنى الاعتداء والعنف ويبتعد بقدر المستطاع عن طبيعته البديهية، التي تشير إلى ردة فعل، وينسلخ عن سياق الاحتلال الإسرائيلي المتواصل.

وينجم عن هذا الأمر استخدام الكلمة المذكورة في اللغة العبرية على نحوٍ سرياليٍّ. فمنذ أن برز استخدام كلمة 'الانتفاضة' بمدلولٍ سلبيٍّ معزولٍ عن سياق القمع والمقاومة التي ثارت في وجهه، أُتيحت الفرصة لاستخدامها في السياق الإسرائيليّ الداخليّ بوصفها انتقادًا للسلوك 'غير العقلاني' و'العنيف' الذي تسلكه جماعاتٌ مختلفةٌ ضد شرعية المؤسسة [الإسرائيلية]. فقد صوَّرت وسائل الإعلام الإسرائيلية اليهود المتزمّتين (الحريديم)، الذين تظاهروا في القدس احتجاجًا على مسيرة المثليين الجنسيين (Gay Pride Parade) وخرّبوا إشارات المرور وأحرقوا حاويات النفايات في الشوارع، على أنهم متطرّفون متعصّبون سوف يتسبّبون في اندلاع 'انتفاضة' المتزمتين. وعندما قرّر الجيش الإسرائيلي إخلاء منزلٍ يعود لمستوطنين يهود في مدينة الخليل الفلسطينية، شرع المستوطنون في مهاجمة المواطنين الفلسطينيين في المدينة. وفي هذه الأثناء، أشارت وسائل الإعلام الإسرائيلية إلى طبيعة ردة فعل هؤلاء المستوطنين 'غير الشرعية'، ونقلت التقارير حول "أعمال الشغب التي شنّها المستوطنون اليهود ضد الفلسطينيين"، محذِّرةً من "مخاطر 'انتفاضة' المستوطنين اليهود في الخليل". وكذلك، فحينما قاطع المحتجّون المؤيّدون للقضية الفلسطينية المحاضرةَ التي ألقاها السفير الإسرائيلي لدى الولايات المتحدة [مايكل أورن] عدّة مرات، أشارت أجهزة الإعلام الإسرائيلية إلى هذا الحدث باعتباره عملاً من أعمال العنف التي تَسِمُ "'الانتفاضة' الأكاديمية".

لقد أمسى مصطلح 'الانتفاضة' سائدًا في الخطاب الإسرائيلي- العبري بصورةٍ باتت معها كافة الدلالات التي يحملها كفاح الفلسطينيين ونضالهم لنيل استقلالهم- أو رغبتهم في نفض الحواجز العسكرية التي تقيمها قوات الجيش الإسرائيلي والهيمنة الإسرائيلية عن كاهلهم وعن حياتهم- مسائل ثانوية. وقد صرّح محمد بركة، العضو الفلسطيني في البرلمان الإسرائيلي، في العام ٢٠٠٠ "بأننا نُقدّر الانتفاضة ونحترمها، ونحن نؤمن بأن هذا هو الردّ الصحيح [على الاحتلال الإسرائيلي]". وكان بركة يقصد أن الفلسطينيين الذين يعيشون في الضفة الغربية يجب أن يدعموا الثورة الشعبية ضد الاحتلال الإسرائيلي وأن يساندوا المقاومة من أجل مواصلتها واستدامتها. غير أن السلطات الإسرائيلية فهمت تصريح بركة على نحو مغاير، حيث قال النائب العام الإسرائيلي: إن استخدام مصطلح 'الانتفاضة' يستدعي "التحقيق في انتهاك بركة للقانون الإسرائيلي بشأن مكافحة التحريض على الإرهاب".

*****

ولا تشكّل كلمة 'شهيد' التي يستخدمها المسلمون أيّ فرقٍ في هذا المقام كذلك. وتشير هذه الكلمة، في السياق السياسي الفلسطيني، إلى أولئك الذين يُتوفَّون نتيجةً للاحتلال الإسرائيلي أو في سياق مواجهته والرد عليه. وتترادف كلمة 'شهيد' مع مصطلح 'الشهادة'، التي تعبِّر عن إقرار المسلم وإيمانه بوحدانية الله وبنبوّة الرسول محمد

وينظُر المستشرقون الإسرائيليون ووسائل الإعلام الإسرائيلية إلى مفهوم 'الشهيد' أو 'الشهادة' على أنه مفهومٌ دخيلٌ على المجتمع الإسرائيلي/ اليهودي، وهو بالتأكيد مفهومٌ غير إنسانيٍّ. كما يُنظَر إلى الفكرة التي تقضي بإيلاء قيمةٍ أكبر لموت الإنسان على حياته على أنها نوعٌ من المفاهيم الإسلامية الرجعية، بحيث تعزّز ما 'نعرفه في الأصل' عن الإسلام والمسلمين والفلسطينيين.

صلى الله عليه وسلم. وبحسب التقليد السائد، يُشار إلى أن المؤمنين المسلمين الذين يقضون نحبهم في سبيل قضيةٍ أخلاقيةٍ يتفوّهون بالشهادة قبل موتهم، ويُعتقد بأنهم يصبحون 'شهداء' يحيوْن في الجنة (وقد يكون من الأمثلة السياسية على هذه القضية الصراع الذي يخوضه الفلسطينيون في سبيل نيل استقلالهم).

وينظُر المستشرقون الإسرائيليون ووسائل الإعلام الإسرائيلية إلى مفهوم 'الشهيد' أو 'الشهادة' على أنه مفهومٌ دخيلٌ على المجتمع الإسرائيلي/ اليهودي، وهو بالتأكيد مفهومٌ غير إنسانيٍّ. كما يُنظَر إلى الفكرة التي تقضي بإيلاء قيمةٍ أكبر لموت الإنسان على حياته على أنها نوعٌ من المفاهيم الإسلامية الرجعية، بحيث تعزّز ما 'نعرفه في الأصل' عن الإسلام والمسلمين والفلسطينيين.

وقد لخّص البروفسور يوءاف غيلبر (Yoav Gelber) هذه المسألة في كتابه "التاريخ والذاكرة والدعاية: تاريخ تهذيب النفس في إسرائيل وفي العالم" (الذي نُشر في العام ٢٠٠٧ باللغة العبرية) على النحو التالي: "هناك فروقٌ ثقافية بين ثقافة الاعتراف في الديانة المسيحية، وثقافة اتّهام الذات في الديانة اليهودية وفي الثقافة الفلسطينية- العربية التي تقول بأنه 'يجب الإنحاء باللائمة على الجميع إلا أنا'... [وهناك فروقٌ كذلك] بين الثقافة التي تضع قدسية الحياة في المركز [اليهودية] والثقافة التي تشجّع على الانتحار وثقافة الشهداء [الإسلام]...". (نقلاً عن ترجمة كاتب المقال).

ويؤكّد أحد المنشورات الصادرة عن جهاز الأمن العام الإسرائيلي (الشاباك) على أن الأطفال الذين يشاركون في المخيمات الصيفية الفلسطينية يُجبَرون على مشاهدة صور 'الشهداء' المعلَّقة في غرفهم. ويخصِّص مركز المعلومات الإسرائيلي المعنيّ بالمخابرات والإرهاب قسمًا من تقريره لتناول "ثقافة تمجيد 'الشهداء' بين الفلسطينيين"، ويستعرض الحالة التالية كمثال على ذلك: "يتعلم الأطفال الفلسطينيون بأن الطريقة المثلى للاحتفال بيوم الاستقلال الفلسطيني تكمن في زيارة عائلات 'الشهداء'". ولا تُعتبر حقيقة أن الفلسطينيين لا يحتفلون بيوم استقلالهم – لأنهم ما زالوا يخضعون للاحتلال ولأن الاستقلال هو ما يناضلون في سبيله – أكثر المفاهيم المحرَّفة والمزعجة التي ينطوي عليها هذا التقرير. والأهمّ من ذلك أن ما يُعرَف بالثقافة 'الدخيلة' التي تقوم على تمجيد القتلى من المقاتلين ووضعهم في مركز الحياة المدرسية أو المعتقد الدينيّ أو تعليم التاريخ وتدريسه لا تُعتبر مغايرة لفئةٍ اجتماعيةٍ أخرى لا تعيش على مسافة بعيدة من الفلسطينيين: وهي المجتمع الإسرائيلي- اليهودي نفسه.

فبادئ ذي بدء، من المؤكّد أن الديانة اليهودية تملك مفهومًا مشابهًا لمفهوم 'الشهيد'، وهو ما يُعرف بـ'كيدوش هاشيم' ('التضحية باسم الله')، حيث يمجّد هذا المفهوم، الذي يتقاطع مع مفهوم 'الشهيد' في الإسلام أكثر منه مع مفهوم 'الشهيد' في المسيحية، موت أولئك الذين يقضون نحبهم عندما يضحّون بحياتهم في سبيل مجتمعهم اليهودي أو ديانتهم اليهودية. فحينما يحصل ذلك، ينبغي على الشخص الذي يقبل على الموت أن يتلو دعاء 'شماع يسرائيل'، الذي يعبِّر عن إقرار اليهودي بإيمانه بوحدانية الرب. وفي التوراة، يُجمع حرفان للدلالة على دعاء 'شماع يسرائيل' – وهما حرفا العين والدال – اللذان يشكّلان مع بعضهما البعض كلمة 'إيد' التي تعني شهيد في اللغة العبرية.

وفضلاً عن ذلك، يغضّ المجتمع الإسرائيلي الطرْف على الدوام عن الآثار الاجتماعية الموازية التي ينطوي عليها هذا المفهوم. بل إن هذا المجتمع لا ينبس ببنت شفةٍ عن التشابه القائم بين هذين المفهومين اليهودي والإسلامي. إن الواقع الذي يشير إلى أن المجتمع الإسرائيلي يُهدي الحدائق وقاعات المحاضرات والمتنزّهات والمحميّات الطبيعية وغيرها إلى الجنود الإسرائيليين- اليهود الذين تُوُفوا يعتبر أمرًا مقبولاً، ولا يُنظر إليه على أنه دخيل. وعلى هذا المنوال، فحقيقة أن الأطفال الإسرائيليين يستذكرون، في

ومن الطرق الشائعة في التعامل مع المفاهيم العربية/ الإسلامية في الخطاب الإسرائيليّ إقصاؤها إلى سياقٍ دينيٍّ ذي بُعد واحدٍ لا يتغيّر. وبذلك، يعبّر 'الشهيد' في جميع الحالات عن شخصٍ يموت وهو يقتل الآخرين، وذلك على نقيض المفهوم اليهودي الذي يمكن أن يموت الشخص بموجبه في سبيل 'كيدوش هاشيم' وهو يدافع عن الآخرين، أو عندما يفضّل الموت على التحوّل إلى ديانة أخرى. ولا تعتبر الفكرة التي تقول بأن 'الشهيد' قد يكون شخصًا يُتوفى وهو يطلب العلم أو الأمّ التي تموت في أثناء الوضع جزءًا من المفهوم الإسرائيلي. بل وليس هناك أيضًا ما يُعرف بـ"شهيد الحب" - بحسب وصف البروفسور ساسون سوميخ.

يوم استقلال دولتهم، الجنود الذين سقطوا في حروب إسرائيل ويزورون عائلاتهم تبدو أمرًا طبيعيًا لا غبار عليه. ولا يمثّل موقع قلعة "متسادة" سوى أحد الشواهد على هذه الحقيقة. فهذا الموقع، الذي بات يشكل مكانًا لتعليم طلبة المدارس والجنود الإسرائيليين، اختيرَ بسبب أهميته التاريخية/ اليهودية 'البطولية'. فهناك، وفي سنة ٧٣ ميلادية، أقدمت جماعةٌ من اليهود، بمن فيها من الرجال والنساء والأطفال، على ارتكاب انتحارٍ جماعيٍّ كان دافعه 'كيدوش هاشيم' كي لا يستسلموا للرومان.

ويساعد عمل المجتمع الإسرائيلي- اليهودي على غربَنَة مصطلح 'الشهيد' بإيراده بلفظه العربي، والإحجام عن ربطه بالمفاهيم السائدة في الديانة اليهودية والمجتمع الإسرائيلي، في إسباغ صفةٍ شيطانيةٍ على الشعب الفلسطيني وعلى ثقافته. وبالتالي، يتمكّن الخطاب الإسرائيلي من البقاء على نقيض الخطاب الفلسطيني عن طريق فصل مصطلح 'الشهيد' عن المقاومة الفلسطينية، وذلك في ذات الوقت الذي يعمل فيه على سلخ تمجيد 'الشهداء' عن الكفاح الذي يخوضه الفلسطينيون للتحرّر من القمع والاضطهاد المتواصلين وعن حياتهم في ظلّهما. وإذا لم يكن هذا الأمر على النحو المذكور، فربما يصحو الأطفال الإسرائيليون- اليهود من الكابوس في ليلةٍ من الليالي، يغطيهم عرقهم البارد، مدركين أن "شيمشون هغيبور" (شمشون الجبّار) كان أول شهيدٍ في تاريخ البشرية جمعاء.

ومن الطرق الشائعة في التعامل مع المفاهيم العربية/ الإسلامية في الخطاب الإسرائيليّ إقصاؤها إلى سياقٍ دينيٍّ ذي بُعد واحدٍ لا يتغيّر. وبذلك، يعبّر 'الشهيد' في جميع الحالات عن شخصٍ يموت وهو يقتل الآخرين، وذلك على نقيض المفهوم اليهودي الذي يمكن أن يموت الشخص بموجبه في سبيل 'كيدوش هاشيم' وهو يدافع عن الآخرين، أو عندما يفضّل الموت على التحوّل إلى ديانة أخرى. ولا تعتبر الفكرة التي تقول بأن 'الشهيد' قد يكون شخصًا يُتوفى وهو يطلب العلم أو الأمّ التي تموت في أثناء الوضع جزءًا من المفهوم الإسرائيلي. بل وليس هناك أيضًا ما يُعرف بـ"شهيد الحب" - بحسب وصف البروفسور ساسون سوميخ (Sasson Somekh).

*****

ويسري ذات هذا الأمر على مصطلح 'الهدنة'، حيث يركّز تفسير هذا المصطلح في إسرائيل على أنه يعني 'وقفًا لإطلاق النار'، ولكنه غير حقيقي. وبالأحرى، يُعتبر 'وقف إطلاق النار' المذكور مؤقتًا، سوف تتجدّد بعده المعارك في مرحلة أو أخرى على يد 'الآخر' الفلسطيني 'الشرّير' 'الذي لا يمكن الوثوق به'.

وهذه هي الفكرة التي تنتشر في إسرائيل عندما يقترح حزبٌ فلسطينيٌّ، كحركة حماس مثلاً، 'هدنةً' - بمعنى وقفًا لإطلاق النار من قبل الجانبين. وبحسب ما جاء على لسان البروفسور جاكوب لاسنر (Jacob Lassner) والبروفسور إيلان تروين (Ilan Troen) من جامعة بن غوريون في بئر السبع، تمثّل 'الهدنة' ترتيبًا قد يستمرّ لسنوات، "ولكن يجب استئناف المعركة عندما يكون حساب القوة في صالح المؤمنين".

ويعود هذا الوصف في جذوره إلى أول 'هدنة' عُقدت في عهد الإسلام، والتي قام على أساسها صلح الحديبية الذي أُبرم بين النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم وقبيلة قريش في سنة ٦٢٨ ميلادية. وقد عُقِد هذا الصلح من جديدٍ في سنة ٦٣٠ ميلادية بعدما فتح النبي محمد عليه السلام وأصحابه مكة. ومع ذلك، لا تشكّل هذه الرواية سوى روايةٍ واحدةٍ للهدنة، حيث تفصلها ١٣٨٢ سنةً شهدت من المستجدات والتطورات - بما فيها التفسير وإعادة التفسير ودراسات

ويتقاطع رفض الإسرائيليين ترجمة مصطلح 'الهدنة' بحيث يعني 'وقف إطلاق النار'، وإصرارهم على استخدامه بلفظه العربي – وهو ما يفسرونه بطريقةٍ أو بأخرى على أنه ترجمةٌ إسلاميةٌ مخادعةٌ عفا عليها الزمن لعبارة 'وقف إطلاق النار' – مع النظرة العامة التي يحملها 'الخبراء' الإسرائيليون تجاه الفلسطينيين. فتمسُّك إسرائيل بتفسيراتٍ من قبيل أن "الفلسطينيين إنما يحاولون كسب الوقت من خلال 'الهدنة'"، أو أن "'الهدنة' ليست سوى خداع"، ينبع من انعدام إيمانهم بأن الفلسطينيين لا يستطيعون البوح بالحقيقة في قرارة أنفسهم أو أنهم يرغبون في حياة يعمّها السلام.

الحالة الجديدة للتاريخ وظهور توجهاتٍ متباينةٍ في هذا الشأن – عن واقع الهدنة في هذه الأيام. وتشير الأدلة التاريخية إلى أن النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن ينوي خرق شروط الهدنة عندما وقّع عليها. ولكن هذا الأمر ليس مثار الجدل في هذه الحالة. فمنذ سنة ٦٢٨ ميلادية، شكّلت الهدنة في مواضع ليست بالقليلة جسرًا نحو عقد الصلح كمرحلةٍ أولى نحو التوصّل إلى حلولٍ سلميةٍ دائمة وإرساء أساسٍ لإبرام معاهدات السلام، وذلك كما هو حال الاتفاقية المغربية– الإسبانية التي وُقِّعت في العام ١٨٦٠ في أعقاب الحرب في تطوان. وليس الإسرائيليون في حاجةٍ إلى استكشاف هذا التقليد ودراسته بصورةٍ معمقةٍ لكي يدركوا بأن 'الهدنة' تعبِّر في تاريخها عن مفهومٍ مباشرٍ لا ينطوي على العنف. ففي العام ١٩٧٩، تم التوقيع على معاهدة السلام بين إسرائيل ومصر، وهي المعاهدة التي شكّلت أول اعترافٍ بإسرائيل من قبل دولةٍ عربية، وذلك بعد أن حصل الرئيس المصري أنور السادات على فتوى شرعيةٍ تجيز له إبرام اتفاقٍ للسلام بناءً على 'الهدنة' التي سبق إبرامها في الإسلام [صلح الحديبية].

ويُنظَر إلى الفكرة التي تقول بأن المفاهيم الدينية اليهودية تنشأ وتتغير مع مرور الوقت، وأنها تخضع للتفسير وإعادة التفسير، على أنه أمرٌ طبيعيٌّ وجليٌّ ضمن الخطاب الإسرائيلي– اليهودي. وفي المقابل، يُنظر إلى الكتابات الإسلامية، وما يرتبط بها من مفاهيم، على أنها جامدةٌ في الزمن وعصيّةٌ على التغيير عبر الأجيال، علاوةً على كونها عاجزةٌ عن التطور بأي شكلٍ كان.

وللمرء أن يفترض بأن إسرائيل ليست مستعدةً في واقع الحال لإنهاء احتلالها للأراضي الفلسطينية أو الاعتراف بالنكبة التي جلبتها على أبناء الشعب الفلسطيني (بمعنى إقامة دولة إسرائيل بتهجير ما يربو على ٧٠٠،٠٠٠ مواطنٍ فلسطينيٍّ قسرًا عن ديارهم خلال حرب العام ١٩٤٨). وبالتالي، فإن 'الانهيار' المتوقع لاتفاقية وقف إطلاق النار هو ما يستحوذ على تفكير الإسرائيليين – بصورةٍ مشوهة جدًا. ولذلك، لا يفتأ الإسرائيليون يصوّرون 'الهدنة' على أنها اتفاقٌ مخادعٌ لا يمكن الوثوق به ولا يمكن أن يعمّر لأمد طويل. فعندما حاول إسماعيل هنية، رئيس الوزراء في الحكومة الفلسطينية التي شكّلتها حركة حماس، التوصّل إلى اتفاق 'هدنةٍ' مع إسرائيل خلال العام ٢٠٠٧، قال الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريس بأن "هذه محاولةٌ بائسةٌ تهدف [ليس إلى وقف إطلاق النار] بل إلى تحويل الجدل القائم عن الجرائم التي ترتكبها حماس". كما كتب المراسل العسكري لجريدة "هآرتس" بأن "'الهدنة' لا تزيد عن كونها خداعًا". وفي شهر أيار ٢٠٠٨، رفض إيهود باراك اقتراحًا خرجت به حركة حماس للتوصل إلى 'هدنة'، متخذًا ذات الأسباب المتقدّم ذكرها أساسًا لتبرير قراره.

ويتقاطع رفض الإسرائيليين ترجمة مصطلح 'الهدنة' بحيث يعني 'وقف إطلاق النار'، وإصرارهم على استخدامه بلفظه العربي – وهو ما يفسرونه بطريقةٍ أو بأخرى على أنه ترجمةٌ إسلاميةٌ مخادعةٌ عفا عليها الزمن لعبارة 'وقف إطلاق النار' – مع النظرة العامة التي يحملها 'الخبراء' الإسرائيليون تجاه الفلسطينيين. فتمسُّك إسرائيل بتفسيراتٍ من قبيل أن "الفلسطينيين إنما يحاولون كسب الوقت من خلال 'الهدنة'"، أو أن "'الهدنة' ليست سوى خداع"، ينبع من انعدام إيمانهم بأن الفلسطينيين لا يستطيعون البوح بالحقيقة في قرارة أنفسهم أو أنهم يرغبون في حياة يعمّها السلام.

ويفسّر تسيفي يحزكيلي (Tzvi Yehezkely)، الذي ربما يعد أحد أكثر المعلقين شهرةً حول الشؤون العربية في التلفزيون

وتُتَرجم كلمة 'جناح' في اللغة العبرية إلى "بيليغ"، وهي كلمةٌ تحمل في جانبٍ كبير منها مدلولاً سياسيًا يشير إلى جناح أو فصيلٍ في حرب أو نزاع قائم. ولم يقع الاختيار على هذه الكلمة بصورة اعتباطية أو عشوائية. فحقيقة أن ما لا يزيد عن ٦٠ كيلومترًا تفصل مكتب "الجناح الشمالي" (في أم الفحم) عن مكتب "الجناح الجنوبي" (في كفر قاسم) تشير إلى أن هذين المصطلحين اختيرا بهدف خلق تقسيم 'الشمال مقابل الجنوب'، وهو تقسيم يثير التهديد في النفوس. فهذا التقسيم لم ينبع من التقسيم الأصيل بين منطقتين جغرافيّتين، وهو ما يعتبر أمرًا سخيفًا برمّته في مثل هذا البلد الصغير.

الإسرائيلي، هذه الظاهرة بصورةٍ لَبِقة. فبحسب ما يقول، "هناك مثلٌ يقول في اللغة العربية "هل تريد الصحيح أو ابن عمه" . . . العرب عادةً ما يفضّلون 'ابن عمه'" . وفي الواقع، فإن هذه النظرة التي يعبّر عنها 'خبيرٌ' في اللغة العربية وفي شؤون الشرق الأوسط، أو 'خبراء' من أعضاء السلك الأكاديمي في حالات أخرى، لا تسمح بتعميم الأفكار التي يخرجون بها على نطاقٍ واسعٍ فحسب، بل إنه يفترض كذلك أنها تعكس الموقف العامّ الذي يتبنّاه الإسرائيليون تجاه الشقّ 'الآخر' المطلَق منها، وهو العرب. ويبدو أن التركيز على 'العقلية العربية' – باعتبارها مفهومًا مغايرًا ومخادعًا وجامدًا، والذي كان البعض على أملٍ بأن يختفي بعد نشر كتاب "الاستشراق" لإدوارد سعيد – يضطلع بدورٍ قويٍّ ضمن المجتمع الإسرائيلي في هذا اليوم أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

*****

كما يلصِق الإسرائيليون صبغةً شيطانيةً أو يضفون قيمًا سلبيةً على المفاهيم عندما لا يشكّل الإحجام عن ترجمتها الأسلوب الذي يفضّلونه. ففي بعض الأحيان، قد تساعد الترجمة نفسها على تحقيق ذات الأهداف المرجوّة. خذ مثلاً الحركة الإسلامية التي لم تزل ناشطةً في إسرائيل منذ العقد السابع من القرن الماضي، والتي تزعّمها في بادئ الأمر الشيخ عبد الله نمر درويش. فقد كانت هذه الحركة تُسمّى في اللغة العبرية، في مستهلّ عهدها، بـ'هاتنوعا هاإسلاميت' (والمعنى الحرفيّ لهذه العبارة هو 'الحركة الإسلامية'). وفي سياق الانتخابات المرتقبة للبرلمان الإسرائيلي [الكنيست] في العام ١٩٩٦، ساد انقسام في أوساط قيادة هذه الحركة بشأن مسألة المشاركة في تلك الانتخابات. ومن ثم انقسمت الحركة إلى شقين: فأولئك الذين أيّدوا المشاركة في الانتخابات انضموا إلى الشيخ إبراهيم صرصور، وانضوى الآخرون الذين عارضوها – والذين كانوا يمثّلون موقفًا يتّسم بقدر أكبر من الراديكالية – تحت راية الشيخ رائد صلاح. ومنذ ذلك الحين، برز شرخٌ كذلك بين المصطلحات العربية والعبرية المستخدمة في هذا الشأن. وربما يعود السبب في إحجام وسائل الإعلام الإسرائيلية عن استخدام المصطلحات الفلسطينية والعربية من قبيل "الحركة الإسلامية التي يتزعمها الشيخ صرصور" و"الحركة الإسلامية التي يترأّسها الشيخ صلاح" إلى تصاعد حدّة التوتر بين الفلسطينيين والإسرائيليين اليهود داخل إسرائيل أو إلى تدهور الوضع السياسي العام خلال تلك السنوات (وذلك قبيل اندلاع الانتفاضة الفلسطينية في العام ٢٠٠٠). وبدلاً من هذه المصطلحات، عمدت أجهزة الإعلام الإسرائيلية إلى تسمية الحركتين الوليدتين بـ"الجناح الشمالي" و"الجناح الجنوبي".

وتُتَرجم كلمة 'جناح' في اللغة العبرية إلى "بيليغ"، وهي كلمةٌ تحمل في جانبٍ كبير منها مدلولاً سياسيًا يشير إلى جناح أو فصيلٍ في حرب أو نزاع قائم. ولم يقع الاختيار على هذه الكلمة بصورة اعتباطية أو عشوائية. فحقيقة أن ما لا يزيد عن ٦٠ كيلومترًا تفصل مكتب "الجناح الشمالي" (في أم الفحم) عن مكتب "الجناح الجنوبي" (في كفر قاسم) تشير إلى أن هذين المصطلحين اختيرا بهدف خلق تقسيم 'الشمال مقابل الجنوب'، وهو تقسيم يثير التهديد في النفوس. فهذا التقسيم لم ينبع من التقسيم الأصيل بين منطقتين جغرافيّتين، وهو ما يعتبر أمرًا سخيفًا برمّته في مثل هذا البلد الصغير.

ولك أن تمعن النظر في العناوين التالية، التي نُشرت في الصحف

الإسرائيلية: "وزير الأمن الداخلي ينحو باللائمة على الجناح الشمالي للحركة الإسلامية بسبب الصدامات التي اندلعت في البلدة القديمة في القدس"، و"مؤسسة الأقصى التابعة للجناح الشمالي للحركة الإسلامية تتّهم إسرائيل بالتنقيبات الأثرية غير القانونية"، و"اعتقال زعيم الجناح الشمالي"، و"محكمة إسرائيلية ترفض الاستئناف الذي قدّمه الجناح الجنوبي". إن هذه المصطلحات تندرج ضمن مكوّنات تثير الخوف والكراهية في نفوس القراء الإسرائيليين، وهو ما يعمل على زيادة مبيعات الصحف من جانب، وييسّر شيطنة 'الآخر' السياسي.

*****

يتعرّض الفهم الإسرائيلي للسياسة الفلسطينية للتشويه والتحريف عبر تدخّل 'الخبراء' الإسرائيليين الذين يوظّفون كلمات ومصطلحات تخدم أغراضهم وغاياتهم. فمهمة هؤلاء 'الخبراء' ليست صعبةً في واقع حالها. فقد خاضت إسرائيل النزاعات مع الدول العربية والحركات العسكرية العربية منذ نشأتها. كما أن اليهود الإسرائيليين لا يقرأون اللغة العربية، ومعظمهم ينفر من هذه اللغة ومن أصواتها ومن متحدثيها وثقافتهم. فلا يساهم استخدام الكلمات المعنية في لفظها العربي في توظيف خطابٍ صهيونيٍّ عدائيٍّ أصيل تجاه اللغة العربية وأصواتها فحسب، بل إنه أيضًا يقرّب غير الخبراء من أفراد المجتمع الإسرائيلي من الخبراء، مما يجعلهم يدورون في فلكهم. ومن ثم يصبح تحميل الكلمات العربية بتفسيراتٍ وسياقاتٍ تثير الخوف والكراهية في النفوس أو تمكّن من توفير التبرير المطلوب لتجدّد الحروب في المستقبل أمرًا يسيرًا وفي متناول اليد.

ويمكن إنجاز هذه المهمة ذاتها بترجمة تعبيرٍ معينٍ بصورةٍ مشوهةٍ ومحرَّفةٍ من ناحيةٍ عسكريةٍ أو بصورةٍ تضفي عليه بُعدًا سلبيًا. فالقارئ، أو المتلقي، لا يملك مصادر بديلة للحصول على المعلومات، وبالتأكيد لا تشمل هذه المصادر الصحافة العربية أو المصادر الأكاديمية الأجنبية التي لا تُعتبر موثوقةً ولا موضوعيةً على خلاف المصادر الإسرائيلية- اليهودية. وبذلك، يتولّى المؤلف كتابة ما يرغب القارئ في قراءته وما يملك القدرة على قراءته، في حين يتولّى الخبير تفسير ما يكتبه ذلك المؤلف والتعليق عليه ضمن الفهم السياسي المحدود والموجود أصلاً لدى المستمع ولدى المؤسسة الإسرائيلية- اليهودية التي تنتج هذه المعرفة. وقد كتب بيتر بيرغر (Peter Berger) مرةً حول "خطر انعدام المعنى". وربما نستطيع استعارة هذا المفهوم لكي يساعدنا على فهم - وإن بصورةٍ مجتزأة - هيمنة التحليل ذي البعد الواحد والمنحاز الذي طغى على حقل دراسات الشرق الأوسط و'تخصصاته' منذ نشأته في إسرائيل.

ليس في وُسع المرء أن يتكهّن بما كان يمكن أن يحصل لو كان الإسرائيليون سيستهلكون المعلومات التي يتلقّونها من الخبراء والمعلقين، الذين لم يكونوا من الناحية المنطقية جزءًا من هذه المؤسسة الإسرائيلية، ولا منخرطين من الناحية النفسية في منظومة 'الآخر العربي'. وفي هذا السياق، ينبغي علينا أن نسأل أنفسنا حول ردة فعلنا على العبارات التالية: "تشكل ثقافة 'الشهداء' جزءًا أصيلاً من المعتقد الإسلامي"، و"الفلسطينيون يهددون بـ'انتفاضة' أخرى"، و"سوف ينظم 'الجناح الشمالي' مظاهرةً في القدس"، و"مقترح حماس البائس للتوصل إلى 'هدنة' مؤقتةٍ لا يمكن الوثوق بها". وفي المقابل، لنا أن نفكر فيما نستنتجه من العبارات التالية التي تناظر العبارات السابقة والتي تتّسم بقدر أكبر من الدقة: "يشكّل المفهوم الفلسطيني لمفهوم 'كيدوش هاشيم' اليهودي جزءًا من المعتقد الإسلامي"، و"سوف يواصل الشعب الفلسطيني ثورته بسبب استمرار الاحتلال"، و"سوف تنظم الحركة الإسلامية الإسرائيلية مظاهرةً في القدس"، و"تقترح حماس على إسرائيل إبرام وقفٍ أصيلٍ وواعدٍ لإطلاق النار".

إن كراهية الإسرائيليين لـ'الآخر' الفلسطيني ولارتباطاته السياسية وقراراته العسكرية ولـ 'الغيرية' برمّتها، إنما هي اختراعٌ لغويٌّ إلى درجةٍ معينة. ولقد استورد هذا الاختراع إلى ساحة المعركة تراكيب صرفيةٍ ومفاهيم ترجمةٍ وجيشًا من الجنود 'المتواضعين' الذين يعملون على نقل الكلمات والمصطلحات العربية بحروفها وأصواتها الأصلية.

لقد أثبت الإسرائيليون أن اللغة تشكّل إمدادًا وتعزيزًا يضفي المعاني التي يريدونها ويفضّلونها في سياق المعارك التي يخوضونها ضد الفلسطينيين. وللمرء أن يفترض أن ذلك يشكّل طابورًا خامسًا أكثر من أيّ شيءٍ آخر.

مترجم عن الانكليزية عن المقال الأصلي التالي:

Yonatan Mendel, 'The Politics of Non-Translation: On Israeli Translations of Intifada, Shahid, Hudna and Islamic Movements', Cambridge Literary Review, I/3 (Easter, 2010), pp. 179–206.